الفصل الثالث
شخصيات عظيمة

«ياه أشنتيوا» المرأة الفولاذية
وأسطورة الكرسى الذهبى

جمهورية غانا الحالية التى تقع على الساحل الجنوبى لغرب إفريقيا، كان اسمها أيام الاستعمار «ساحل الذهب». وقبل الاستعمار كانت تسمى مملكة الأشانتى، وقد لعبت دوراً رائعًا فى حماية المنطقة من الطلائع الأولى من المستعمرين ببطولة شهدت لها كتاباتهم، ونسجوا حولها الأساطير والحكايات، ونسبوا قوتها إلى قوة السحر التى تتميز بها المجتمعات الإفريقية[1].

فقد كان من الغريب عليهم أن تقاوم هذه القبائل البدائية بنادقهم وأسلحتهم، ولما عجز المستعمر عن القضاء عليها لجأ إلى الأسلوب الذى تؤمن به وحاربها بنفس السلاح.

كانت قوة ونفوذ مملكة الأشانتى (ساحل الذهب) تستمد من عقيدة «الكرسى الذهبى»، هذه الأسطورة التى تناقلها الأبناء عن الآباء، والتى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر بداية تكوين المملكة. فقد كانت قبيلة الأشانتى على صراع دائم مع قبيلة الفانتى أقوى قبائل غرب إفريقيا، وفى ذات يوم بينما كان زعماء الأشانتى مجتمعين لبحث الهزيمة التى لحقت بهم بعد أن أسر الفانتى عدداً كبيراً منهم، ارتفع وسط الجميع صوت الساحر «أنوتشى» وقال مخاطبًا الملك: «لاتبتئس أيها

---

(١) جمهورية غانا الحالية هى غير غانا القديمة التى ترد فى كتب التاريخ والتى كانت تشمل أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى.
كانت مملكة الأشانتى أو ساحل الذهب تقع فى الأطراف الجنوبية لغانا القديمة التى امتد نفوذها إليها وإن لم تقع مملكة الأشانتى تحت سيطرتها.
وقد قصدت الإشارة للتمييز بين الاثنتين حتى لا يقع لبس بسبب الاسم بينهما.

الزعيم إن النصر سيكون حليفك، وسوف تكون مملكتك عظيمة يشيد بها الناس، لقد أخبرتنى الآلهة بذلك، ولكن مقابل شرط واحد هو أن تحتفظ بالكرسى الذهبى الذى ستمنحه لك الآلهة، وطالما كان الكرسى فى مأمن فلن يصيب مملكة الأشانتى سوء، ولكن حذار أن يلمس الكرسى الأرض فإن قوة الأشانتى تتمثل فيه». وفى وسط الصمت الرهيب الذى عم الجمع تلبد الجو وأضاءت السماء بالبرق القوى الغريب، ثم هطلت أمطار غزيرة على غير العادة حتى كاد الجمع أن يتفرق، فصرخ فيهم الساحر: «لا تتحركوا.. إذا تحركتم فلن ينزل الكرسى المقدس». واستمر الحال عدة ساعات، وأخيراً بدأت السماء تفيق من غضبتها، وبدت القرية وكأنها قد خلت وطهرت من خطاياها، ثم سُمع صوت قوى، وشقت السماء ونزل منها كرسى مطلى كله بالذهب واستقر فى حجر الملك. وبرفق حمل الكرسى أربعة من الرجال وساروا به حتى «بيت الأجداد» حيث وضعوه فوق جلد نمر.

وبدأت الانتصارات تتوالى على جيش الأشانتى حتى قضى تماما على مقاومة الفانتى، وبسط الأشانتى نفوذهم على كل المنطقة وكوّنوا مملكة غانا ساحل الذهب. وقدّس الأشانتى الكرسى وفرضوا حوله رقابة قوية، وأقاموا له الأعياد، وأصبح من تقاليدهم أن يُصنع لكل ملك عند مماته كرسى يوضع بجوار الكرسى المقدس؛ حتى تنتقل قوة الملك الراحل إلى الملك الجديد.

وعندما جاءت الطلائع الأولى من المستعمرين ـ وأقامت مراكزها الصغيرة على الساحل بمساعدة قبائل الفانتى ـ التى انضمت إليهم رغبة فى القضاء على عدوتها القديمة ـ قاومها الأشانتى ببطولة خارقة، وترددت على أسماعهم أسطورة «الكرسى الذهبى»، ولكنهم سخروا منها فكيف تقف خرافة كهذه أمام قوة سلاحهم، ولكن استمر النضال والصمود بصورة أذهلتهم، حتى تأكدوا أن إيمان الأشانتى بعقيدتهم أقوى من أى سلاح، فبدءوا يبحثون عن الكرسى سر قوة الأشانتى، ولكن كان من المستحيل عليهم معرفة مكانه فقد نقله الأشانتى إلى مكان مجهول.

وفى ذات يوم وقع الخائن «كونج» أسيراً فى أيديهم، وكان «كونج» أحد القواد المقربين لملك الأشانتى، ثم غضب عليه فتضايق وحقد. وعرف الإنجليز مأساته

فمنوه بأمانى كثيرة وأغروه بأنهم سيتوجونه على عرش المملكة، وقدموا له صندوقًا من النبيذ ثمن إفشاء سر مكان الكرسى، وكان هذا أغلى ثمن يمكن أن يحصل عليه الإفريقى من الرجل الأبيض.

دلّ «كونج» الإنجليز على مكان الكرسى، ولكن لما كان من العسير الوصول إليه أشعلوا النار فى القرية كلها حتى حُرق الكرسى ومن فيها من الأهالى وأصاب الأشانتى الذعر، وعرفت قصة الخائن «كونج» الذى تنكر له الإنجليز وتركوه يواجه مصيره وحده.

وفى الساحة الكبرى اجتمع شعب الأشانتى الحزين وشهد التاريخ الإفريقى الحديث أروع محاكمة لأكبر خائن، وحكم على «كونج» بالموت، فقيدوا لسانه فى سلسلة، وأخذوا يضربونه بزجاجات النبيذ التى أخذها ثمن خيانته حتى تحطمت رأسه.

لم تدم مقاومة الأشانتى بعد ذلك؛ إذ فقد الشعب مقاومته، واستطاع الإنجليز القضاء على مملكته بسهولة، وبسقوط مملكة الأشانتى سقط آخر حصن فى غرب إفريقيا فى يد الاستعمار.

الأشانتى

كان ظهور الأشانتى فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى؛ حيث استقرت مجموعة من قبائل الآكان فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، واستقر مقامهم فى مناطق الغابات الواسعة فى شكل جماعات أو ولايات منفصلة لا يربطها أى ربط أو اتحاد، عدا العلاقات الروحية التى توجد لدى القبائل المنتمية إلى أصل واحد.

وكان عدد هذه الولايات يربو على اثنتى عشرة ولاية، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة، بل ظهرت ولاية واحدة هى الأشانتى التى اعتبرت أقوى هذه الولايات، وأصبحت «كومساى - Kumsai» عاصمة الأشانتى عاصمة روحية لجميع قبائل الآكان.

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعرضت ولايات قبائل الآكان لغزوات مستمرة من القبائل الأخرى المعادية التى تعيش فى المناطق المجاورة، وكانت قبائل الآكان بطبيعتها مسالمة، ولكن أثر هذه الغزوات دفع الآكان إلى التطلع إلى أمل الاتحاد؛ لتتمكن من مواجهة الأعداء وصد هجماتهم.

وفى أواخر القرن السابع عشر تحقق هذا الأمل على يد «أوزاى توتو-Osei Tutu» ملك كومساى الذى نجح فى جمع رؤساء قبائل الآكان فى مجلس واحد، ودعاهم إلى ضرورة الاتحاد فى أمة واحدة وتحت حكومة مركزية واحدة.

وتقول الحكايات المتوارثة: إنه فى نفس اللحظة التى كان «أوزاى توتو» يخطب فيها فى مجلس شيوخ القبائل والولايات ليقنعهم بميزة أن يتوحدوا فى دولة واحدة هبط من السماء كرسى عرش مصنوع من الذهب الخالص، وكانت هذه دلالة سماوية على قيام مملكة جديدة هى مملكة الأشانتى وعلى رأسها الملك «أوزاى توتو».

ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت مملكة الأشانتى أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، وتمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تمتلكها، والتى تخبئها وتخفيها داخل أماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات.

وبدأت مملكة الأشانتى فى غزو الأراضى المجاورة وراء حدودها الغربية، وعندما ازدادت قوة الأشانتى قام جيش الأشانتى بغزو القبائل التى تعيش فى المناطق الساحلية، وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه الحكايات المتوارثة باعتباره أكثر جيوش غرب إفريقيا شجاعة وتوحشًا.

وخلال القرن التاسع عشر ناضلت الأشانتى بقوة ضد المستعمرين الإنجليز، وسببت لهم متاعب باستمرار مقاومتهم لسنوات طويلة.

بدأت حرب الأشانتى مع البريطانيين فى عام ١٨٤٤م عندما قطع الأشانتى رأس الحاكم البريطانى سير «شارلز مكارثى» بعد هزيمة قواته، وقال الأشانتى وقتها: إن الرجل الأبيض أتى بمدافعه إلى الأدغال فوجد الأدغال أقوى من المدافع.

وفى عام ١٩٠٠م بعد ست وخمسين سنة قامت الحرب من جديد بين الأشانتى

والبريطانيين، وكانت هذه المرة بقيادة شخصية نسائية عظيمة هى «ياه أشنتيوا» التى قادت جيشًا من الرجال حاربت به المستعمر، وبهزيمتها انهارت مملكة الأشانتى وأصبحت أراضيهم محمية بريطانية ضمن مستعمرة غانا، وظلت غانا تحت سيطرة الاستعمار البريطانى حتى عام ١٩٥٤م عندما حصلت على الحكم الذاتى، ثم استقلت فى ٦ مارس ١٩٥٧م ودخلت فى إطار الكومنويلث البريطانى، وتولى رئاستها الزعيم الإفريقى العظيم «كوامى نكروما» الذى صار اسمه رمزًا للفكاك من التبعية والإلحاق اللذين عانت منهما الشعوب الإفريقية لعدة قرون.

ياه أشنتيوا

هناك عدد من النساء العظيمات فى غانا وفى التاريخ الإفريقى، ولكن «ياه أشنتيوًا تقف أعلاهن جميعًا، فمواقفها المجيدة وهى امرأة قادت جيش الأشانتى ضد العدو القديم كان فعالاً وذا تأثير كبير على شعب غانا، إلى حد أن آباء الأشانتى حتى اليوم يسمون بناتهم على اسمها، ومنهم الرئيس الغانى السابق «جيرى رولنجز» فقد سمى ابنته باسمها رغم أنه ليس من الأشانتى.

فى بداية الألفية الثالثة أجرت إذاعة B.B.C الإفريقية (الإذاعة البريطانية الموجهة لإفريقيا) اقتراعًا على الشخصية الإفريقية للقرن العشرين، وطلبت من مستمعيها الإفريقيين أن يصوتوا على: من بطل القرن العشرين؟، وجاءت النتيجة أن «ياه» أشنتيوا هى المرأة الوحيدة التى ذكرت بين ثلاثين شخصية أفريقية.. كان «كوامى نكروما» هو البطل رقم واحد ورجل إفريقيا عن القرن العشرين، وبعده ٢٨ بطلاً كلهم من الرجال، وجاءت «ياه أشنتيوا» رقم ٣٠ فى القائمة، وهى المرأة الوحيدة بين هؤلاء الرجال، ومن ثم فهى تعد البطلة رقم واحد من النساء فى تاريخ إفريقيا فى القرن العشرين.

واسم «ياه» «طبقًا لتقويم غانا هو اسم امرأة ولدت يوم الخميس، و«أشنتيوا» هو اسم مؤنث مملكة الأشانتى. و«ياه أشنتيوا» فى سنواتها الأولى لم تكن معروفة وقائع حياتها، ولكن المؤرخين ذكروا أنها كانت فى بداية الستينيات من عمرها فى عام ١٩٠٠م عندما حاول البريطانيون إهانة أمة الأشانتى. كانت «ياه أشنتيوا» ملكة

على «إيجيزوا» وهى قرية صغيرة على بعد ١١ ميلاً شرقى كومساى العاصمة، وصارت اليوم ضاحية من ضواحى كومساى بفضل نمو المدينة فى السنوات العشر الأخيرة.

قبل إعلان «ياه أشنتيوا» الحرب على البريطانيين عام ١٩٠٠م مر الأشانتى بمرحلة من القلاقل السياسية، ففى عام ١٨٩٦م اعتقل البريطانيون ملك الأشانتى «برمبه» الأول ونفوه إلى جزر سيشل مع ثلاثين من الرؤساء البارزين والكبار ومنهم أمه وأبوه وأخوه.

وشهدت السنوات الأربع ما بين ١٨٩٦ م إلى ١٩٠٠م محاولات الأشانتى اليائسة لتغيير السياسة البريطانية نحوهم، وفشلت محاولاتهم لإعادة الملك «برمبه» وأعضاء الأسرة المالكة الآخرين.

وفى عام ١٩٠٠ م حاول الحاكم البريطانى سير «فردريك هدسون» أن يستولى على الكرسى الذهبى، وهو أحد الأشياء المهمة التى توحد الأشانتى كلهم، وحتى اليوم فإن الكرسى الذهبى لا يزال الأشانتيون ينظرون إليه باعتباره تجسيداً لروح أمة الأشانتى وجسدها، وإن محاولة الحاكم العام للاستيلاء على هذا الكرسى اعتبرت إهانة كبيرة للأشانتى لا يمكن تحملها.

إن الأدب الشعبى (الفولكلور) يقول: إن الكرسى الذهبى قد جُلب من الفضاء الخارجى بواسطة رجل دين هو «أكومفو أنوكيو» فى بداية عهد ملك الأشانتى «أوزاى توتو الأول». ويندر أن يرى الكرسى بواسطة الجماهير، وهو من أكثر محتويات ملكية الأشانتى قداسة، ويعتقد أنه يحمل الروح والجوهر لأمة الأشانتى. ولكن كما يحدث دائمًا فإن أحد الأفراد تطوع ودل البريطانيين على مكان اختباء الكرسى الذهبى، فأرسل سير«فردريك» على الفور رجاله للاستيلاء عليه، فلما فشلوا ذهب بنفسه إلى كومساى، وهناك وجد رجال الأشانتى مجتمعين، فقال لهم بصلف: إن ملكهم لن يفرج عنه وسيظل فى منفاه إلى الأبد، ولكى يضيف إلى ذلك إيذاءً وإهانة لهم طالبهم بأن يدفعوا ثمانية آلاف بريدوان (حوالى ٦٦ ألف جنيه استرلينى)، باعتبارها فائدة على الضرائب المفروضة على الأشانتى. ويذكر أحد المؤرخين أن الحاكم البريطانى خاطب الأشانتى بما يلى: ماذا

يجب أن أفعل برجال امتنعوا أن يعطوا الملكة ڤكتوريا الكرسى الذى ترغب فيه، أين هو الكرسى الذهبى، ولماذا لا أجلس عليه فى هذه اللحظة وأنا أمثل القوة المستديمة، لماذا لا تنتهزون فرصة مجيئى إلى كومساى لكى تأتوا بالعرش الذهبى لكى أجلس عليه، يجب أن تتأكدوا على كل حال أنه رغم أن الحكومة البريطانية لم تستلم الكرسى الذهبى من أيديكم، فإنها ستبقى حاكمة عليكم بنفس الحزم والقوة كما لو كنتم أعطيتموه لها.

كان الأشانتى فى أشد حالات السخط، ولكن شلهم الخوف من تحدى البريطانيين؛ بسبب ما حدث قديمًا، ففى إحدى الحروب التى جرت بين عامى ١٨٧٣م و١٨٧٤م ذكرت جريدة التايمز فى افتتاحيتها أن الحاكم البريطانى استطاع أن يقبض على مجموعة كبيرة من المتوحشين الدهماء (تقصد الأشانتى) فلن يجد أحسن من أن يعاملهم بالرصاص، وبعد ٢٦ عامًا فإن الحاكم سير فردريك هدسون فعل نفس الشىء.

كانت «ياه أشنتيوا» تجلس هناك تتلفت يمينًا ويسارًا إلى زعماء الأشانتى والرجال المجتمعين، وعندما لم تجد أحدًا يتحرك أو مستعدًا للتحرك ضد البريطانيين قامت من كرسيها، وقالت مخاطبة لهم: «كيف يمكن لشعب شجاع ومعتز بنفسه مثل الأشانتى أن يجلس هكذا ويتفرج، فى حين أن الرجل الأبيض قبض ونفى ملكهم ورؤساءهم وأهانهم بطلب الكرسى الذهبى. إن الكرسى الذهبى لا يعنى للرجل الأبيض أكثر من أنه نقود، وأنا لن أدفع عملة واحدة للحاكم، وإذا كنتم أنتم رؤساء الأشانتى تتصرفون كجبناء ولا تحاربون فاخلعوا ثياب الأسود التى تلبسونها.. أيها الرجال من وطننا الأم، نحن نقابل مواجهة حادة؛ بسبب المطلب المهين الذى وجهه هذا الحاكم من أجل الكرسى الذهبى، ويجب أن نذكر أنه لم يمض وقت طويل منذ أن غزا الرجل الأبيض بلادنا، وأعلن أن مملكتنا قد صارت تحت الحماية البريطانية. وعلينا ألا ننسى أن هذا الرجل الأبيض نفسه هو الذى سيطر على كومساى؛ حيث كان مقر الحكم بعد أن نهب كنوزها التى تركها الآباء ولم تكن تقدر بمال.

إن ملكنا «برمبه» نفسه قد اعتقل ونُفى إلى بلاد أجنبية ومعه الملكة «نانايا أكينا» وكذلك رؤساؤنا وقوادنا دون اعتراض، واليوم فإن الحاكم جاء ليطلب الكرسى الذهبى وهو روح الأشانتى.

يا أيها المواطنون، هل نقبل هذه الإهانة من هؤلاء المحتالين، انهضوا وقاوموا الرجل الأبيض الذى هدفه الوحيد فى بلادنا هو أن يسرق وأن يدمر، ومن الخير لنا أن نموت مدافعين عن بلادنا خير من أن نعيش عبيدًا.

إنى أرى أن بعضًا منكم يخشى الذهاب بعيدًا للقتال من أجل الملك، وفى أيام الشجاعة القديمة فإن الرؤساء كانوا لا يرضون أن يُؤخذ ملكهم بعيدًا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة، ولم يكن يجرؤ رجل أبيض على الحديث عن الأشانتى فى الأيام القديمة بالطريقة التى يتكلم بها الآن، فهل فقدَ الأشانتى اليوم شجاعتهم.

أنا لا أعتقد ذلك إذا لم تستطيعوا يا رجال الأشانتى أن تتقدموا إلى الأمام فستكونون مثل النساء، نحن يجب أن نقاتل الرجل الأبيض، ويجب أن نقاتل حتى يسقط آخر رجل من رجالنا، أنا «ياه أشنتيوا» مستعدة ومؤهلة نفسى لقيادتكم للحرب».

بهذا الخطاب أعلنت «ياه أشنتيوا» الحرب ضد البريطانيين، وقادت شخصيّا جيش الأشانتى إلى المعركة، وكانت هذه هى الحرب الأخيرة بين الأشانتى والبريطانيين، بدأت فى مارس ١٩٠٠م وانتهت فى مايو ١٩٠١ م، وعرفت فيما بعد باسم «حرب ياه أشنتيوا».

ورغم عدم معرفتها بالتدريب العسكرى فإن جيش «ياه أشنتيوا» استطاع أن يحقق فى البداية عددًا من الانتصارات الملحوظة، فمثلاً حاصر قلعة كومساى التى كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها؛ مما تسبب فى المجاعة والأمراض بها، وأثبت هذا التكتيك فاعليته؛ بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية بعد أن تكبدوا خسائر جمة.

ولكن بنادق البريطانيين الكبيرة كسبت، وكعقاب لـ «ياه أشنتيوا» فقد وضعت فى سفينة أبحرت بها إلى جزر سيشل لتلقى هناك الملك «برمبه» الأول وسائر رؤساء الأشانتى، وماتت بعد ذلك هناك بعد عشرين سنة فى أكتوبر ١٩٢١ م قبيل أن يسمح لـ «برمبه» بالعودة إلى بلاده وإلى شعبه فى كومساى.

صدر قرار نفى «ياه أشنتيوا» من المكتب الاستعمارى فى لندن فى ١٧ مايو ١٩٠١م، أرسلت بموجبه «ياه أشنتيوا» مع ١٤ عضوًا من مجلس الحرب الذى كان

يعمل معها إلى المنفى، ونص القرار «لقد تقرر أن ينفى إلى جزيرة سيشل ١٥ رئيسًا من الأشانتى ممن أرفقت أسماؤهم وألقابهم، وسينقلون بباخرة تترك ساحل الذهب فى ٢٥ مايو ١٩٠١م، وأرجو أن يعاملوا معاملة المسجونين السياسيين الذين أرسلوا من سيراليون فى الصيف الماضى، وكل نفقات هذا الأمر تتحملها حكومة ساحل الذهب.

هذا الإجراء المهين استفز حتى الحاكم البريطانى الذى خلف سير فردريك هدسون، وهو الحاكم «ناثان» الذى انتقد سلوك سلفه فى برقية أرسلها إلى وزارة المستعمرات البريطانية فى لندن، وقال: «إن انتفاضة ياه أشنتيوا ترجع إلى سخط الرؤساء وقادة شعب الأشانتى ضد الحكم البريطانى، وهذا السخط سخط طبيعى لقد أخذنا منهم كل ما يهتمون به ووضعناهم فى شروط لا يرضون عنها».

وثمة ضابط بريطانى آخر هو الكابتن «دونالد ستيوارد» ذكر رأيًا سلبيًا أيضًا فى سير هدسون، وقال: إن هدسون كان يمكنه أن يتفادى حمّام الدم ما دام أن الأهمية السيكولوچية للكرسى الذهبى كانت مفهومة لدى الضباط المحيطين به.

وفى الحقيقة فإن «ياه أشنتيوا» كشفت عن الهدف الأساسى لتصرف هدسون بأنه كان يرغب فى الكرسى لنفسه ليجلس عليه ضد كل تقاليد الأشانتى.

والبعض قال: إن هدسون كان يريد أن يستحوذ عليه لنفسه لا أن يرسله إلى الملكة «ڤكتوريا» كما ادّعى؛ لأن الملكة «ڤكتوريا» ماتت ١٩٠١م وهى سنة انتهاء الحرب.

إن «ياه أشنتيوا» كانت امرأة عظيمة، ولكنها لم تكن المرأة الوحيدة فى تاريخ غانا أو تاريخ إفريقيا فى القرن التاسع عشر، وعلى عكس حسابات الغرب بالنسبة للمرأة الإفريقية فإن المؤرخ البريطانى «ايفور ويلكس» الحجة فى تاريخ الأشانتى يقول: نحن يجب أن نتكلم عن نسوة الأشانتى؛ لأن النساء كن يسدن فى تقرير السياسات وتوجيهها، إن الطريق إلى كومسای مثلاً قد بنى بأوامر سيدة هى «أكياوا أيكون» وهى ملكة من الأشانتى، وقد وصفت بأنها واحدة من أحسن الديپلوماسيات الإفريقيات والمفاوضات فى القرن التاسع عشر.

ومرة أخرى عندما بدأت مملكة الأشانتى تنهار فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر فإن الملكة «اشنتيما نانا ياه أكيا» استردتها.

ولكن «ياه أشنتيوا» وانتفاضتها تبقى أمرًا خارقًا للعادة، وبعض المؤرخين ينسبون ذلك إلى عنصر الشجاعة فى أسرتها، فأحد أجدادها قاتل وكسب بحيرة بوسنتيوى وهى البحيرة الطبيعية الوحيدة فى غانا لصالح الأشانتى.

واليوم فإن «ياه أشنتيوا» تتداول سيرتها فى شعر البطولة والأغانى، وتسمى باسمها المدارس والسيدات الإفريقيات والأمريكيات. وفى عام ١٩٨٦م صدرت عملة غانا الوطنية تحمل صورة «ياه أشنتيوا». وفى يونيو ٢٠٠٠ م نقلت رفاتها إلى بلدها وأعيد دفنها فى موكب جليل. بدأت الاحتفالات بنقل رفاتها بواسطة ملك الأشانتى الجديد أوتومو أوزاى توتو الثانى، كجزء من احتفالات يوم التحرير فى غانا الذى يوافق ٢٦ يونيو، وهو اليوم الذى تعتبره غانا يوم إلغاء العبودية من المستعمرات البريطانية، وكان هذا العام شهد احتفالاً خاصًا؛ لأنه يوافق مرور مائة سنة على انتفاضة «ياه أشنتيوا» ضد البريطانيين، وقد استمرت الاحتفالات ستة أشهر، ولا يوجد شرف يستحق أن يعطى أكثر من أن يستمر الاحتفال بها طوال هذه المدة.

* * *

شاكا مكبث الزولو

مسرحية «الإمباثا» المأخوذة عن مسرحية «مكبث» لشكسبير تعد من أروع الأعمال الفنية الإفريقية، فقد استطاع «ولكوم أمسومى» وهو كاتب ومخرج مسرحى ذو شعبية كبيرة فى جنوب إفريقيا أن يحور بمهارة وفن مسرحية شكسبير، التى مضى على كتابتها أكثر من ٤٠٠ سنة، إلى مسرحية تجرى فى أرض الزولو فى القرن التاسع عشر، ومع التزامه بالنص الإنجليزى قدمها برؤية إفريقية؛ لتلائم تقاليد وثقافة شعب الزولو، استوحى بطلها من زعامة حقيقية ظهرت فى أرض الزولو هو الملك «شاكا» أكثر الحكّام قوة وجبروتًا الذى وحّد أرض الزولو (جنوب إفريقيا).

كتب أمسومى مسرحيته فى الستينيات من القرن العشرين، وعرضت حينذاك على مسرح جامعة ناتال بجنوب إفريقيا، ونالت وقتها نجاحًا كبيرًا، ثم توالى عرضها فى الولايات المتحدة وفى عدد كبير من دول أوروبا، ولا تزال تعرض أحيانًا على مسرح شكسبير المفتوح بلندن(*).

عندما مثلت الإمباثا فى أواخر الستينيات كان الزعيم «نلسون مانديلا» وقتها فى السجن، وعبر عن رغبته فى مشاهدتها، ولكنه لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة إلا بعد الإفراج عنه، وعندما شاهدها التهبت أكفه بالتصفيق فقد شاهد شيئًا فريدًا مملوءًا بالقوة والحيوية المصحوبة بالموسيقى المثيرة الرائعة مع الغناء والرقص ذى الإيقاع الصاخب على دقات الطبول، وكان تعليقه: «أن هذه المسرحية تصور

(*) مسرح شكسبير العالمى المفتوح كان حلم الطفولة لمنتج الأفلام الأمريكية «سام وناميكر» الذى أراد أن يعيد بناء المسرح كما كان أيام شكسبير، وهو العمل الذى بدأه عام ١٩٨٧م، ثم تباطأ بعد موته فى عام ١٩٩٣م، ولكنه اكتمل عام ١٩٩٥م، وصار الآن واحدًا من أكثر المسارح شعبية وجذبًا للسياح والمواطنين.

بحيوية الطموح العام والظمأ والخوف، وأكثر من ذلك التشابه بين مكبث التى كتبها شكسبير وبين شاكا الذى ينتمى إلينا، وهذا مما يذكرنا بأن العالم من الناحية الفلسفية هو مجال صغير جدّا».

عندما سُئل أمسومى: لماذا اختار مكبث بالذات ليترجمها إلى لغة الزولو ويعدها بهذا العرض المميز، أجاب بأنه وجد فى مؤتمرات ومناورات أسطورة مكبث صورة طبق الأصل للدراما التى جرت فى البلدان الإفريقية، فمكبث الإنجليزى يشبه شاكا الإفريقى، وتاريخ جنوب إفريقيا يتشابه مع تاريخ انجلترا القديم، وسكان الناتال فى جنوب إفريقيا التى تدور فيها مسرحية الإمباثا كانوا فى الماضى السحيق عددًا من القبائل المتناحرة توحدت تحت اسم واحد هو«الزولو»، وهو اسم لإحدى الجماعات الصغيرة التى استطاعت فى أوائل القرن التاسع عشر أن تسود المنطقة وتفرض سيطرتها على جيرانها وتخضعهم لها. باختصار يمكن تلخيص تاريخ جنوب إفريقيا فى مجموعة من الحروب المتلاحقة المعقدة، ومجموعة من الهجرات والإبادات الجماعية التى أدت كلها إلى وحدة «الزولو».

وتاريخ انجلترا القديم لا يزيد عن كونه سلسلة من الإغارات يتلو بعضها بعضًا وحروبًا طويلة لا تكاد تنقطع وغزوات تلو أخرى، فمنذ آلاف السنين الممتدة وراء القرن الحادى عشر لا يكاد يسجل التاريخ إلا سلسلة متصلة من موجات وغزوات وهجرات تتخللها دول صغيرة يحكمها ملوك أشبه برؤساء المقاطعات، وكانت تثور بين هؤلاء الملوك منازعات دموية تنتهى بسيطرة أحدهم. فلما جاء القرن الحادى عشر أتى «وليم الفاتح» وأتباعه من مقاطعة نورماندى فى شمال فرنسا، وأخضعوا سكان البلاد الأصليين، وحكموا وأقاموا نظاما إقطاعيّا، واقتسم الأمراء النورماند أرض جزيرة بريطانيا، وبقى الشعب فى كل إقطاعية خاضعًا لأمير منهم يتصرف فى شئونه تصرف الحاكم المطلق، بل صار الشعب أشبه بمن لا يملك لنفسه حرية.

وقصة مكبث استوحى شكسبير وقائعها من حوليات إيقوسيا (اسكتلندا) التى كتبها «هولنزهيد» ١٥٧٧م، فهى مزيج من التاريخ والأقاصيص تقع حوادثها قبل الإغارة الكبرى التى غيّرت وجه التاريخ فى انجلترا، وهى إغارة النورماند على «وليم الفاتح». ومجمل القصة كما رسمها شكسبير أن جموعًا من أهل الشمال من

بلاد النرويج أغاروا على أرض إيقوسيا بمعاونة بعض أمرائها الإقطاعيين، وكادوا يستولون على البلاد التى يحكمها الملك «دنكان» لولا شجاعة الأمير «مكبث» ابن أخ الملك وأقرب قواده إلى قلبه، الذى استطاع مع رفيقه الأمير «بنكو» إنزال الهزيمة بالغزاة وانتهت الموقعة بانتصارهما، وفى طريق عودتهما ليحملا النبأ العظيم إلى الملك اعترض طريقهما ثلاث ساحرات تنبأن لمكبث أنه سيصبح ملكًا، وبشرنه بالترقى العاجل فى مناصب الإمارة، وأنه سيتولى إقطاعية «قودر» كخطوة أولى فى سبيل الملك، وهتفن لـ «بنكو» بأنه سيكون والدًا لملوك إيقوسيا.

وقبل أن يصل «مكبث» و«بنكو» إلى حدود البلاد جاء رسل الملك يستقبلون الأبطال المنتصرين، ويحملون لمكبث خبر أن الملك خلع عليه إمارة قودر، فوقع فى روع «مكبث» أن بشرى الساحرات صادقة ما دامت قد بدأت تتحقق بالإمارة، وداخله الطمع فى الملك السريع فخطرت له فكرة التخلص من الملك؛ كى تتم نبوءة الساحرات.

لما أخبر «مكبث» زوجته بما حدث اشتعلت مطامعها، وأخذت تزكى فى زوجها وساوسه وتحرضه على قتل الملك، وحانت الفرصة عندما جاء الملك لزيارة «مكبث» فى قصره تكريمًا له، فانتهز «مكبث» هذه اللحظة ونفذ جريمته وقتل الملك «دنكان»، ولم يستطع الأمراء الآخرون أن يجاهروا بشكوكهم نحوه فاختاروه ملكًا، واضطر ولدا دنكان الملك القتيل إلى الهرب، ولجأ الابن الأكبر إلى ملك انجلترا يطلب منه المساعدة فى استعادة عرش أبيه.

وبعد أن صار «مكبث» ملكًا توجس من زميله «بنكو» الذى بشرته الساحرات بأنه سيكون والدًا للملوك فدبر مؤامرة لقتله، وعندما نفذ جريمته استولى عليه وهم شديد بأن شبح «بنكو» يلاحقه أينما ذهب، فهو يتمثل أمامه بين ضيوفه ويتخيله جالسًا على كرسيه يهز له خصلة شعره المعقود بالدم فيهيج «مكبث» ويتوعده، ويظن الحاضرون أنه يهذى حتى تشككوا فى قواه العقلية. ويتخوف «مكبث» من كل الأمراء المحيطين به، وخاصة أكبرهم «مكدوف» الذى يتبين له أنه يعصى أوامره ويتحداه، فيدبر «مكبث» مؤامرة لقتل «مكدوف»، ولكنه يهرب قبل أن يصل أعوان «مكبث» إلى قصره فيقتلون زوجته وأولاده.

يهرب«مكدوف» إلى انجلترا وهناك يلتقى بالأمير ابن الملك دنكان ، ويتفق الاثنان على محاربة «مكبث»، ويقود «مكدوف» جيش الأمير وأعوانه، وتشتعل الحرب بينهم وبين «مكبث»، وتنتهى المسرحية بمقتل «مكبث» على يد «مكدوف» الذى كان يتحرَّق للانتقام لزوجته وصغاره.

هذه قصة مكبث الإنجليزى، أما الإمباثا أو مكبث الزولو فتروى أنه فى أوائل القرن التاسع عشر ظهر فى ناتال (فى جنوب إفريقيا) عبقرية عسكرية قاسية اسمها «شاكا» وهو ابن غير شرعى للملك «دنجزوابو»، وكان« شاكا» يؤمن بالمانجوما، أى السحرة، ويسخرهم لتحقيق طموحاته، واستطاع «شاكا» أن يصد الغزاة من جيرانه ويكسر حصارهم بفضل تنظيمه للفتيان والشبان فى مملكة والده، وخاض بهم الحروب ضد البيض فى صفوف متراصة وتشكيلات نظامية، مستخدمين سيوفًا قصيرة يطعنون بها أعداءهم بدلاً من الحراب التقليدية. وهكذا اكتسحت قوات شاكا المدربة كل من اعترضها، فغنموا ماشية القبائل الأخرى، وأسروا فتيانها وفتياتها وضموهم لصفوف قواتهم، ويموت الملك «دنجزوابو» فى ظروف غامضة و يخلفه «شاكا» ويصبح الحاكم لأول أمة حديثة هى «أمة الزولو»، ولكن الأخ غير الشقيق لشاكا الذى لم يكن أقل منه قوة وبأسًا وبطشًا يتخوف منه «شاكا» ويتآمر عليه ويقتله بتحريض من أمه، وبدلاً من أن تستتب الأوضاع لشاكا فإن أنصار الأخ المقتول يعلنون الحرب على «شاكا»، وتتحول أمة الزولو إلى أرض قتال تموج بالمؤامرات والمناورات.

كان لانبعاث أمة الزولو تحت قيادة شاكا تأثير بعيد المدى شمل جنوب إفريقيا كلها، فجيرانهم مثل«السوتو» تعلموا منهم فنون الحرب والفتح والنهب وجندوا شبابهم وزاحموا الزولو فى أرضهم، وكذلك استطاعت جماعات السوازى أن تنتفض، وتتحول من مجرد جماعة مطاريد مشتتين إلى جماعة محاربة وقفت فى وجه الزولو (وكونت هذه الجماعات أمتين منفصلتين داخل أرض الزولو أصبحتا فيما بعد مملكتى السوازى والسوتو)، يضاف إلى هؤلاء أن بعض المتمردين على شاكا من الزولو استمالوا إليهم بعض تشكيلاته العسكرية ، وتوجهوا إلى الشمال وقهروا سكانها الأصليين وضموهم إليهم، وأصبحوا هم أيضًا قوة مناوئة لشاكا وأمة الزولو.

وكما لم ينعم «مكبث» بالملك لم ينعم «شاكا» أيضًا بالاستقرار واتسمت فترة حكمه بالحروب والمؤامرات، وعندما غزا البيض البوير (الهولنديون والبريطانيون) إقليم ناتال وجدوه إقليمًا فقيراً بالسكان نتيجة لهذا التطاحن والاقتتال، واستطاع البيض بإمكانياتهم الحربية المتطورة وبالسلاح والبنادق الحديثة، أن يهزموا الزولو ويسقطوا حكم شاكا ويعلنوا جمهورية ناتال البويرية عام ١٨٣٤م.

والحقيقة أن التشابه بين مكبث الإنجليزى وشاكا الزولو تشابه غير عادى.. «مكبث» أمير ابن أخ الملك دنكان، و«شاكا» ابن غير شرعى لملك الزولو، «مكبث» مزيج من الشجاعة والعنف والتردد والضعف تعتريه وساوس السلطة فتتملكه نزعات الاستبداد والبطش، و«شاكا» شاب يعانى من النفى والاستبعاد منكور من والده مكروه من إخوته مطرود من قصر أبيه يتوارى خجلاً وغضبًا؛ وهذا ما خلق لديه العنف والرغبة فى الحرب، واستطاع بتجميع الشبان المنفيين والمطرودين ممن كانوا على شاكلته أن يبنى بهم واحداً من أكثر الجيوش التى عرفتها إفريقيا السوداء من حيث التنظيم والمهارة، وفى مدى قليل غزا وحكم إمبراطورية مترامية الأطراف، «مكبث» يقع أسير نبوءة الساحرات ويضع ثقته فى كلماتهن، و«شاكا» يتأثر بقوة المانجوما (السحرة) فيقتحم معبدهم ويسخرهم لخدمة مصالحه. ومثلما قتل الملك دنكان بواسطة من وثق به، فإن ملك الزولو يقتله أقرب الناس إليه، وإذا كانت زوجة مكبث هى محرضته على القتل، فإن أم شاكا هى من حرضته على قتل الملك دنجزوابو، وتنتهى مأساة مكبث بطعنة من زميله، وتنتهى الإمباثا بقتل شاكا بطعنة من الخلف على يد مستشار القصر.

* * *

هذا هو التشابه بين «مكبث» و«شاكا» فى العمل المسرحى، فهل هناك تشابه بين شاكا ملك الزولو الحقيقى وبين شاكا الأسطورة، أى بين الحقيقة التاريخية والعمل الفنى؟

يسجل التاريخ أنه فى عام ١٧٨٣م ولد طفل من قبائل الزولو اسمه «شاكا»، ونظراً لطفولته المعذبة فقد بحث عن ملجأ له عند أحد الزعماء المحاربين وتبناه أحدهم وجعله وريثًا له، وعندما استلم السلطة شكّل من رعاياه نظامًا عسكريًا مرتكزاً على أساس التنظيم الاجتماعى، الذى كان سائداً بحسب القبيلة وترتيب

العمر، وقسّم الجيش إلى فرق وجهزه ودرّبه تدريبًا جيدًا، ثم بدأ يحارب ويخضع الشعوب المجاورة له، وكان يجبر المغلوبين منهم على دخول جيشه، وتعلم لغة الزولو. وفى عام ١٨١٦م توج حاكمًا للزولو تحت إمرته مائة محارب، ويحكم أكثر من نصف مليون إنسان.

قاد «شاكا» حملات الدمار والموت ضد القبائل المجاورة وسكان الجنوب الغربى الإفريقى، وكان ذا قوة وجبروت ولقب نفسه بالزعيم المبجل من كل شعب الزولو «الشمس إشراقته، والعواصف غضبته، والمطر رضاؤه، والقحط سخطه». كان قاسيًا متعسفًا عندما ماتت أمه فرض الحداد فى كل البلاد طوال عام، وأعدم عددًا من المواطنين؛ لأنهم لم يشتركوا فى الحداد أو لم يظهروه بالشكل الكافى، وعندما أصيب فى محاولة اغتيال فرض على البلاد إجراءات غريبة وصارمة، فأعدم عددًا من الناس؛ لأنهم لم يبكوا كما ينبغى أن يكون البكاء أو لأنهم كانوا يبكون وهم جلوس، وبقر بطون الحوامل فكيف تحمل النساء وشاكا مصاب، وحرم كل اتصال جنسى بين الرجال والنساء وإذا ظهرت شواهد على ذلك أعدم الرجل والمرأة، ومنع نحر الماشية فلا أكل لحوم وشاكا مصاب. وبعد أن تأكد أنه تماثل الشفاء تغير الوضع ونحر بنفسه الذبائح وقدمها أضحيات لروح أبيه المتوفى.

كان طموح شاكا هو إبادة جيرانه وأعدائه ومد سلطانه عليهم، وشهد عام ١٨٢٤م تطوراً جديداً فى سياسة شاكا، فقد تحقق من المكاسب التى يمكن أن تعود عليه إذ أقام علاقات طيبة مع المجتمع الإنجليزى التجارى الصغير فى ميناء ناتال (ميناء ديربان الآن)، فالتجارة مع الإنجليز ستمكنه من الحصول على الأسلحة النارية ذات القيمة الفائقة، فقرر أن يكسب ودّ ومساندة الإنجليز، فعقد معاهدات مع تاجر إنجليزى أصبح للبيض بمقتضاها حق التجول بحرية فى أرض الزولو مقابل مساعدة هؤلاء له فى حربه ضد جيرانه.

حقيقة شاكا

فى عام ١٨٢٤م قام الرحالة البريطانى «هنرى فين» برحلة إلى أرض الزولو، وهناك فى منطقة ناتال قابل الملك شاكا، وكتب كتابًا رائعًا عن رحلته سجل فيه

مشاهداته ووصف وصفًا دقيقًا لحياة شعب الزولو، وكيف التقى مع شاكا ملك الزولو، باختصار شديد كتب يقول: «وصلنا إلى قرية كراك حيث مقر الملك شاكا كانت القرية محاطة بما يقرب من ١٢ ألف رجل مسلح كلهم فى لباس الحرب، كان الملك جالسًا تحت شجرة محاطًا برجاله والزعماء التابعين له، وخلفه كان يقف الخدم يحملون الدروع مرفوعة ومتقاربة على شكل مظلة لتحميه من أشعة الشمس، كان الملك يربط حول جبهته عمامة من الجلد مثبت فى مقدمتها ريشة طويلة، ويلبس عقوداً حول رقبته، ويلف خصره بشراشيب من جلد النمر، عندما اقتربنا تراجع الجمع مفسحين لنا المكان إلا رجل واحد عرفنا أنه مترجم الملك.

كانت المنطقة كلها يغطيها البشر وقطعان الماشية، وقال لنا الملك ألا نخاف من شعبه، ثم بدأ يستعرض قطعان الماشية ليدلل على ثراء مملكته، ثم تحلق الرجال فى دائرة ورقصوا رقصة الحرب وتبعتهم النسوة. وبعد انتهاء العرض الذى استمر أكثر من ساعتين التفت إلينا الملك شاكا، وتحدث حديثًا طويلاً أكد فيه أنه أعظم ملك فى الوجود، وأن شعبه كبير بعدد النجوم، وأن قطعان ماشيته لا تحصى، كان فخوراً بقدرته على استقبالنا نحن البيض، وقال مخاطبا شعبه: إن هؤلاء الرجال هم رعايا الملك چورچ، وإن أجداده كانوا جبناء؛ لأنهم لم يجسروا على استقبال رجل أبيض، أما هو فهو يستقبلهم ليدركوا مدى عظمته وقوته.. كان فخوراً بكل شىء حتى بلونه الأسود، ووجه إلينا الكلام قائلاً: إن أجدادكم الأوروپيين تميزوا بعطايا كثيرة منها معرفتهم بالمعلومات عن الفنون والصناعات، إلا أنهم حرموا من أعظم الهبات، وهى لون البشرة الأسود، فمع سواد البشرة لا يحتاج المرء إلى الملابس التى نلبسها لا لشىء إلا لنخفى الجلد الأبيض؛ لأن منظره لا يسر العين. وسألنا عن استخدام جلود الثيران فى بلادنا، وعندما علم أننا نصنع منها الأحذية وأشياء أخرى اعترته الدهشة مؤكداً أن هذا دليل آخر على أن أجدادنا البيض لم يكونوا رفيقين بنا؛ لأنهم اضطرونا لتخبئة أقدامنا فى نعال، وهذا أمر غير ضرورى، بينما أجداده استخدموا الجلود فى أمر أكثر نفعًا، وهو صناعة الدروع التى هى فى نظره أفضل من بنادق البيض؛ ذلك أن الدرع إذا نقع فى الماء قبل الهجوم يمكنه أن يمنع طلقة رصاص تم قذفها من بُعد، كما أن الفترة التى يستغرقها الرجل الأبيض فى

إعادة تعمير بندقيته تمكنهم من الاقتراب والاقتحام فلا يجد البيض مناصًا إلا الجرى، لذلك فهو لا يستطيع أن يهضم فكرة تفوقنا عليهم. وعبر عن كراهيته لأسلوبنا فى العقاب بالسجن لمرتكبى الجرائم، ذاكرًا أن السجن هو أقصى ما يمكن أن يتعرض له الإنسان وأنه يسبب آلامًا مرعبة، فإذا كان مذنبًا فلماذا لا نقتله أما إذا كان موضع شك فلمَ لا نتركه حرًا».

ويتابع الرحالة «هنرى فين» وصفه للزولو ومحاولة اغتيال شاكا قائلا: «كان الليل يقضى فى مملكة شاكا فى الرقص، وكانوا يشعلون أفرع الشجر الجاف فتلقى ضوءًا يجعل المشهد رائعًا، وفى ليلة سمعت صرخة وسرعان ما انطفأت النيران وخبت الأضواء المنبعثة منها، وأعقب ذلك صراخ وصياح عام وهياج، وعلمت أن شاكا قد طعن بينما كان يرقص».

ويذكر الرحالة: «ولأننى كنت فى الأصل طبيبًا فقد هرعت لمعالجة شاكا. كانت الطعنة التى وجهت إليه بين ذراعه اليسرى وأدنى صدره، وكان الملك يبصق دمًا، ووجدت أن طبيبه الإفريقى الذى بدا أن لديه معلومات جيدة عن الجروح قد أعطاه مقيئًا بجرعات متكررة وقطرات من دواء مطهر، وراح يغسل الجرح باستمرار بماء غليت فيه بعض الجذور النباتية التى تسكن الألم وتسبب إنعاشًا.

ظل الملك يصرخ طوال الليل تقريبًا ولم يكن يتوقع إلا الموت، وزاد الزحام والصياح والجلبة بشكل فظيع. وشهد الصباح مناظر مرعبة فى وضح النهار، وإن الكلمات لتعجز عن نقل الانطباع عن هذا المشهد المرعب، أعداد ضخمة تصل باستمرار، وحالما يقتربون من مكان وجود شاكا يشرعون فى الصياح والجرى، ويصرخون بكل ما فيهم من طاقة ويدفع بعضهم بعضًا، ويلقون أنفسهم على الأرض دون مراعاة لأى خطر يواجهونه أثناء إسقاطهم أنفسهم، لا فرق فى هذا بين الرجال والنساء، وتعرض عدد كبير للإغماء؛ بسبب الإجهاد وحرارة الشمس وشدة الجوع، فمنذ اللحظة التى طُعن فيها شاكا كان محرمًا على الناس أن يأكلوا أو يستحموا أو يحلقوا الشعر، وكل من يخرق هذه القواعد يعاقب بالقتل.

وفى اليوم الخامس ظهرت علامات تشير إلى تحسن صحة الملك، وبدت جروحه

فى حال أفضل، وعاد الرجال الذين أرسلوا للبحث عن الجناة مرتكبى الحادث، وكانوا يحملون ثلاث جثث المفترض أنهم جثث المجرمين وقد تم قتلهم فى الغابة، وقيل إنهم من رجال زويدى العدو القوى للملك شاكا. طرحت الجثث على الأرض، وقطعت الأذن اليمنى لكل جثة، وهرع الناس إليها وكان كلما وصل أحد إلى الجثث الملقاة ضربها عدة ضربات حتى تقطعت الجثث إربًا، وفى النهاية جمعت الأشلاء وسار ثلاثة رجال فى المقدمة يحمل كل واحد منهم عصا علقت عليها أذن القتلى، وسار الموكب إلى مسكن شاكا، وهنا ظهر الملك لشعبه وغنى الشعب أغنية الحداد الوطنية، وتم إشعال النيران ثم أحرقت الأذن حتى صارت رمادًا، ونحرت الذبائح وقدمت أضحيات لأرواح الأجداد، ونحر شاكا بنفسه ذبيحة قدمها أضحية لروح أبيه».

بالطبع هذه الشخصية القوية المتغطرسة المعتزة بنفسها كشخصية شاكا لا ترضى المستعمرين البيض، فتحالفوا مع جيران شاكا من القبائل الأخرى وزودوهم بالسلاح، وأرسلوا الحملة تلو الحملة حتى أصبحت ناتال مسرحًا للاقتتال والفوضى. وفى عام ١٨٢٨م تآمر أخوا شاكا وهما مهلنجانا ودنجان عليه، وبالتعاون مع أحد الزعماء قاموا بطعن شاكا طعنات أودت بحياته، وكانت كلمات شاكا الأخيرة التى انتزعها فى سكرات الموت بينما كان يسقط على الأرض: «أوه. ماذا فعلت لكم يا أولاد أبى».

وهكذا انتهت حياة زعيم وطنى كبير بعد معارك قاسية، ولكن سيرته لم تنته وأصبحت أسطورة تتداولها الأجيال، حتى جاء «أمسومى» ليسجلها فى عمل درامى عظيم ويقدمها باسم الإمباثا.

وقد لاقت هذه المسرحية الإفريقية التراثية نجاحًا لم يكن متوقعًا فى كل مكان عرضت فيه، وأشاد بها النقاد والصحافة، فكتبت صحيفة «وول استريت»: أنه ليس مديحًا للمخرج والمؤلف أمسومى القول إن مسرحيته الإمباثا وضعت أساسًا جديدًا لمسرحية مكبث، وقال الناقد«بيترلو» فى صحيفة «الديلى ميل»: إننى لا أتصور إنسانًا لا ينفعل بهذا العرض، وهذا التفسير الإفريقى لمكبث، إن هذه أول مرة نفهم فيها شكسبير.

وعلق أمسومى على هذا المديح قائلا : «إن الإمباثا جعلت الفن الدرامى يرتبط بتقاليد الزولو، لقد حولت أجزاء من النص لتستجيب لأوضاع العصر الحاضر وتلائم تقاليد الزولو، فقلعة الملك دنكان مثلاً صارت مغارة على قمة جبل، والخناجر والسيوف استبدلت بهما الرماح والدروع، وصور الخيول والطيور تغيرت إلى البقر الأسود والثعابين، وهذا يجعلنى فخوراً بفن وثقافة جنوب إفريقيا، وأتمنى أن يلهم نجاح الإمباثا كثيرين غيرى من الإفريقيين؛ ليعرضوا على العالم التنوع الهائل فى حضارتهم».

باختصار . . يمكن القول: إذا كانت مسرحية مكبث تحمل شهادة بالثراء من الثقافة الإنجليزية، فإن الإمباثا هى صوت قوى لعظمة الثقافة الإفريقية المجهولة.

* * *

مأســـاة ســـارا
رمز لما حدث فى إفريقيا

إن ما حدث لسارتجى بارتمان الذى يختصر اسمها بلفظ «سارا» هو رمز لما حدث لإفريقيا عامة، إن ما عانته هذه الفتاة المسكينة هو صورة للمعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء جلدتها السود الذين شُحنوا قسرًا وكرهًا عبر المحيط الأطلسى، وقذف بهم إلى أوروبا والأمريكات ليعمروها.

لم ترتكب «سارا» ذنبًا فى حياتها سوى أنها ولدت فى هذه القارة التى جعلها المستعمرون البيض قارة للعبودية. اختُطفت «سارا» من موطنها كما حدث لملايين الشباب الإفريقى، ولكن معاناتها كانت أشد وأفظع، فقد عوملت هذه الشابة البائسة فى أرض الغربة على أنها فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، واعتبرها سيدها الأبيض أنها مسخ بشرى يستحق العرض والمشاهدة، وكل ذلك الهوان والبؤس والظلم؛ لأنها كانت ذات أرداف بارزة، مع أن ضخامة الأرداف وغلظة الشفاه من الصفات البشرية للجنس الأسود، بل تعدان من الجمال الإفريقى.

إن ما كتب عن «سارا» قليل، وهو أقل من أن يكشف عن حقيقة ما كانت تبدو عليه، بعيدًا عن المبالغات الغربية والتصوير الكاريكاتيرى لشكلها وأردافها. ولدت «سارا» ١٧٨٩م فى إقليم الكاب بجنوب إفريقيا، وفى السنوات الأولى التى كانت تحبو فيها طفلة كان أهل قبيلتها «الخوسال-Khoisal» يُذبحون ويؤسرون على أيدى المستوطنين الهولنديين للاستيلاء على أرضهم، وسرعان ما وقعت «سارا» فى أغلال عبودية مزارع هولندى هو «بيتر سيزر».

كانت نقطة التحول فى مأساة حياة سارا عندما زار الأخ الأصغر لسيدها المستوطن الهولندى مزرعة أخيه، وكان معه طبيب جراح بريطانى بهره التكوين

الجسمانى لسارا، ومن ثم قام بنقلها إلى بريطانيا لتعرض كحالة غريبة على مسرح بيكاديللى. وفوق حلبة عرض تعلو بارتفاع عدة أقدام، كانت «سارا» تظهر عارية على الناس يقودها حارسها كما يُصنع مع وحش برى، تجبر على المشى والوقوف والجلوس حسب أوامره، كانت تظهر ويعلن عنها باعتبارها أيقونة رديئة للجنس الأسود وللممارسة الجنسية، وعلى أنها تمثل الشراهة الجنسية المتوحشة، وهى الصفة التى أسبغها المكتشفون الأوروبيون لعماء الطبيعة على المرأة السوداء.

صدم هذا الابتذال للعرض العام لـ «سارا» بعض الشرفاء وبدءوا يدافعون عنها وعرضوا قضيتها على القضاء فى نوفمبر ١٨١٠م، ولكن لسوء حظها فإن القاضى حكم ضد منع هذا العرض المبتذل العام لـ «سارا».

وبعد أربع سنوات فى ١٨١٤م باعها صاحب العرض البريطانى لمدرب حيوانات سيرك فرنسى نقلها إلى باريس، حيث وصلت حالتها إلى الحضيض، كانت تعرض مع الحيوانات المتوحشة وهى عارية أو مرتدية بعض الجلود التى تظهرها بشكل متوحش.

وباسم البحث العلمى زادت مهانتها، ففى عام ١٨١٥م قبل وفاتها بقليل أجرى بعض علماء فرنسا (جفروى سانت هيلير وهنرى دبلانفيل وبارون چورچ كافيير) اختباراً على «سارا»، ثم وضعوا نظرية علمية برهنوا فيها على أن المرأة السوداء أكثر بدائية فى شهوتها الجنسية من زميلتها البيضاء، وأن حركاتها وعاداتها تشبهان حركات القرود أو فصائل منها، ودللوا على ذلك بأمور ثلاثة:

١ ـ أنها رفضت أن تفتح ساقيها وخبأت نفسها فى مئزرها، وأن ضخامة شفتيها تثير الشهوة مثل ضخامة أردافها.

٢ ـ الأسف الذى كان يبدو على وجهها.

٣ ـ أنها رفضت المقابل النقدى الذى أعطى لها.

وهذه الأمور الثلاثة إذا كان لدى هؤلاء العلماء قدر من الشرف والاحترام لأدركوا أنها دليل يحسب لسارا لا أن يؤخذ عليها.

حتى الوفاة ذاتها فشلت أن تضع حدّاً للمهانات التى واجهتها «سارا»، فعندما

توفيت فى ديسمبر ١٨١٥م بعد وقت قليل من الاختبار العلمى، وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها، وكان موتها يمثل حركة الاحتجاج الصامت، ويعبر عن أن جهازها العصبى لم يحتمل كل هذه المهانة. تخفت العنصرية تحت ستار العلم الذى كان منتصراً وقتها، وقام عدد من علماء فرنسا بتشريح جثة الفتاة المسكينة، وانتزعوا مخها وأعضاءها التناسلية ووضعوها فى قنينة مملوءة بالفورمالين والمحاليل الحافظة، واحتفظوا بهيكلها العظمى فى «متحف الإنسان» كمسخ آدمى لها، ومما يذكر أنه فى هذا المتحف كل رفات البشر المحفوظة فى معروضاته الزجاجية هم من السود، ولا توجد به حالة واحدة من الجنس الأبيض معروضة، هناك مثلاً نصف رأس لرجل أسود مفتوحة، فهل هذا الرجل تبرع بجسده للعلم!! لا أظن.

عرفت قصة سارا المسكينة من برنامج تليفزيونى عرضته القناة الرابعة البريطانية خصص لصورة الرجل الأسود فى الثقافة الغربية الشعبية، وبهذه المناسبة أشير إلى موضوع سارا. وكان ممن شاهد البرنامج «زولا ماسيكو»، وهو مخرج سينمائى من جنوب إفريقيا التقط الفكرة وعكف على إخراج برنامج وثائقى باسم: «حياة وزمان سارا بارتمان متابعة وثائقية للحياة القصيرة والمأساوية لامرأة شابة من الخوسال».

و«ماسيكو» هو شاب من صناع السينما السود الذين اهتموا بالوثائق الإفريقية فى جنوب إفريقيا، ويحاولون أن يخرجوا منها ما سبق أن أخفى تحت الأبسطة. يقول ماسيكو: إن صناع الأفلام السود فى إفريقيا فى الماضى لم يكن لديهم الوسائل لصناعة الأفلام التى نريدها، أما الآن وقد حزناها فإننا نعيد كتابة التاريخ ونحكيه من خلال تصوراتنا، وسنقول ما نحن عليه ومن أين أتينا، نحن لسنا قردة وليس لدينا چينات مشوهة، نحن نريد أن نسترد كرامتنا، ولهذه الأسباب وأكثر دُفعت أن أحكى قصة سارا.. إننى أتصور أن هذه الشابة خاضت معركة وقاتلت من أجل كرامتها، كانت وحيدة تماماً فى قارة غريبة وماتت من زمن طويل بعيداً عن الشعب الذى أحبها، وقد أبرزت دلائل معركتها من أجل الكرامة التى قاتلت للاحتفاظ بها.

لم يكن البحث عن مادة الفيلم وتصويره بالأمر السهل، كما لم يكن تمويله أيضاً يسيراً؛ ذلك أن الفيلم إنتاج مشترك بين هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وفرنسا، ولفرنسا

اهتمام بالإنتاج السينمائى الإفريقى فى البلاد الناطقة بالفرنسية ، واهتمام قليل جدّا فى البلاد الناطقة بالإنجليزية مثل جنوب إفريقيا ، ولكنها قبلت الاشتراك فيه لأن القصة تدور فى فرنسا .

على أن العقبة الكبرى التى صادفت «ماسيكو» عند محاولته العثور على بقايا رفات سارا هى رفض «متحف الإنسان» السماح بالتصوير السينمائى لرفاتها الأصلية ، بحجة أن هناك قانونًا يمنع تصوير بقايا رفات البشر الموتى ، واقتضى الأمر تدخل حكومة جنوب إفريقيا ؛ لكى يحصل على نموذج من الجبس مجسداً لسارا .

يقول ماسيكو : عندما رأيت النموذج المصنوع من الجبس لسارا وجدت أنه لامرأة طبيعية ، ولم يكن هناك شىء خطأ بالنسبة لها ، وإننى أتعجب هل كانت فعلاً مشوهة خاصة وأن الإفريقيات وبالذات نساء جنوب إفريقيا لهن أرداف بارزة كبيرة .

أحدث الفيلم دويًا كبيراً وحصل تليفزيون جنوب إفريقيا على جائزة أحسن فيلم تسجيلى فى مهرجان الفيلم الإفريقى فى ميلانو . وأثار اهتمام الجمعيات البريطانية والإذاعات هناك ، فالفيلم لم يلق الضوء ويركزه فقط على الموضوع الرئيسى الخاص ببقايا رفات سارا ، ولكنه كشف عن المنهج الذى يقال إنه منهج علمى للعنصرية والعرقية الذى صار جزءًا مهما من النظرية الاستعمارية .

وحث ذلك حكومة جنوب إفريقيا الوطنية أن تنشط لصالح جماعة تمثل حقوق السكان الأصليين من قبيلة الخوسال ، واتصلت بالحكومة الفرنسية للمباحثة من أجل استعادة بقايا رفات سارا ؛ لكى ترقد فى تراب وطنها بعد غربة مهينة استمرت ٢٠٠ سنة .

وأخيراً فى مايو ٢٠٠٢م بعد ١٨٦ سنة من وفاة سارا وافقت فرنسا أن تعيد رفات سارا التى تتكون من الهيكل العظمى وقنينتين تحتويان على مخها وأعضائها التناسلية . وقال وزير البحث العلمى الفرنسى روچية جيرار شوارزميرج : «إن فرنسا بتسليم رفات سارا إلى موطنها وأهلها تريد بذلك أن تعيد الكرامة لسارا بارتمان التى كانت أهينت كامرأة واستغلت كإفريقى» .

وقال «چوزيف تل» رئيس المجلس الوطنى للخوسال: إن عودة رفات سارا تضع علامة النهاية لمائتى سنة من الإذلال والعزلة والانتهاك لكرامتها، وأنه من الجميل أن نشهد نهاية هذه القصة، وأن توضع لها نهاية على مستوى طيب من التكريم، إنها وضعت أمامنا مفهوم أننا محتاجون أن نكون فخورين بجنسنا، بدلاً من أن نختفى وراء هذا التصنيف المسمى «الرجل الملون» الذى أطلق علينا من النظام العنصرى الذى كرس التفرقة العنصرية. ومن هنا بدت الدلالة من عودتها إلى بلدها جنوب إفريقيا، وقد أصبح غير عنصرى وغير متحيز ضد المرأة بعد قرون من الاستغلال والإذلال، ومن خلال الإهانة والموت انبعثت سارا رمزاً وطنيّا يخرج من الماضى البغيض مع الرغبة الجارفة لاستعادة الكرامة لكل الأجناس البشرية.

استقبل رفات سارا فى بلادها كاستقبال كبار الرجال المهمين، وفى احتفال مهيب جرت مراسيم جنازتها، كان فى استقبالها فى مطار كيب تاون لفيف كبير من الساسة والأكاديميين وكبار أعضاء الحزب الحاكم وأعداد غفيرة من قبيلتها الخوسال (التى يعتقد أنها تمثل السكان الأصليين للجزء الجنوبى من إفريقيا)، ووضع الصندوق على عربة مكشوفة تحوطه العربات العسكرية التى اصطفت على جانبيه، وسار الركب فى طريق ممهد واسع، وصدعت الموسيقى البحرية والأناشيد والأغانى احتفالاً بمرور الموكب. وفى ٩ أغسطس وهو يوم المرأة الوطنى فى جنوب إفريقيا رقد رفات سارا فى حديقة جميلة فى وسط كيب تاون.

ولكن لا يزال هناك عدد كبير من الهياكل العظمية تقدر بنحو ١٧٠٠ من الخوسال يقال إنها موجودة فى المتاحف والجامعات الأوروبية، وأنها أخذت بالسرقة من حفر القبور.

وقد طلبت جمعية متاحف جنوب إفريقيا عام ١٩٩٦م استعادة هذه الهياكل، ولكن لم يُستجب للطلب؛ لأن جنون تجميع الهياكل العظمية للخوسال هو جزء من الدراسات العرقية التى تستهدف تأكيد امتياز الرجل الأبيض.

* * *

الملك خاما الثالث
حاتم الطائى الإفريقى

عندما يضع الأوروبيون أيديهم فى قاع جيوبهم للتصدق من أجل الجماهير الجوعى فى إفريقيا، فإن قليلاً من الناس هم من يعرفون أنه إلى وقت قريب كان العكس هو الذى يحدث، وأن إفريقيا القارة المتسولة الآن هى التى كانت تتصدق على أطفالهم الجوعى، وأن الملك «خاما الثالث» ملك بتسوانا أصغر دويلة فى إفريقيا كان أكثر كرمًا من حكّام ورؤساء عالم اليوم الذين يتشدقون الآن بحقوق الإنسان.

وليس ذلك فى الماضى السحيق بل فى الأمس القريب، فحتى مطلع العشرينيات من القرن العشرين كانت إفريقيا سلة غذاء لأهلها ولمستعمريها، لم يكن بين شعوبها حروب ولا اقتتال، وإنما كانت الحروب سمة أوروبا التى أشعلت حربين عالميتين طاحنتين ساعدتهم فيها إفريقيا بثرواتها وشبابها الذين كانوا من وقود هذه الحروب، ومن قبل اقتنص الأوروبيون أبناءها ليعمروا أراضيهم، ثم أشعلوا بينهم بذور الخلافات والفتنة التى حولت القارة المسالمة إلى قارة متطاحنة عاجزة.

يسجل التاريخ أنه فى ١٥ يوليو ١٩٢٠م استلم الملك «خاما الثالث» حاكم بتسوانا (بتسوانا الآن) وكانت محمية بريطانية تقع داخل أفريقيا الجنوبية، استلم خطابًا أتاه بالبريد من سيدة أوروبية تدعى «ماك جريجور» كانت تعمل على جمع الأموال من أجل الجوعى فى أوروبا، وأرفقت بخطابها صورة تثير الشفقة عن أم أوروبية تحتضن ابنها الجائع، وكتبت فى خطابها تقول:

إلى الرئيس خاما إن ليدى بوكستون تسألنى أن أجمع من المحمية معونة من أجل الأطفال الجوعى فى أوروبا، وإنى أسألك إن كان يمكنك أن تساعدنا وكذلك شعبك من أجل هذه القضية التعيسة.

إن آلافًا من الأطفال الأبرياء يعانون من الجوع ويموتون من شدة احتياجهم للطعام، ويتعرضون للبرد القارص ولا توجد ملابس ولا خرق تحميهم، إنه يبدو مرعبًا التفكير فى هذه المعاناة الأليمة التى يعانيها أطفال فقراء لا حول لهم ولا قوة، وفى إفريقيا لديها كل ما تريد.

إننى أهيب بكرمكم لكى نتفادى أهوال هذا البؤس، وأنا واثقة أنك لن تصم أذنيك عن صيحات البائسين ونداءاتهم لكى تساعدوهم. إن الرغبة ملحة وكبيرة وكل جنيه تعطيه ستعطى حكومة جنوب إفريقيا والحكومة البريطانية جنيهًا مثله، إننى أرسل لك صورة واحدة تريك بؤس الأمهات ومعاناة الأطفال، وهناك الآلاف من هؤلاء فى الصرب وأرمينيا وپولندا وبلچيكا وشرق فرنسا وفى كل وسط أوروپا.

إننى أعرف أنك وشعبك سترسلون ما تستطيعون من أجل هؤلاء الأطفال البؤساء المساكين، وتستجيبون لنداء ليدى بوكستون بأقصى ما تستطيعون وبأسرع ما يمكن لأن المعاناة كبيرة.

المخلصة ماك جريجور

وأرفق بالخطاب صورة صغيرة - يبدو أن «ماك جريجور» - قطعتها من إحدى المجلات، وكان النص المكتوب تحت الصورة: «ضحية نقص الطعام: إن وزن هذا المخلوق الصغير البائس البالغ ست سنوات ونصف هو ١٥,٥ رطل فقط، هذا شاهد فهل تتردد لحظة دون أن تصنع أى شىء لإنقاذ الآلاف من هذا الخطر المرعب».

ولكى يكون الملتمس فعالاً ومؤثرًا أضافت السيدة «ماك جريجور» إلى هذا النص «العديد من هؤلاء فقدوا آباءهم فى الحرب وكذلك أمهاتهم».

تأثر الملك «خاما الثالث» (١٨٧٥ - ١٩٢٣م) من هذه الرسالة ووهب لصندوق الأطفال النمساويين الجوعى قدرًا كبيرًا من الجنيهات، حدث ذلك فى عام ١٩٢٠م حينما كانت أوروپا تعانى من آثار الحرب العالمية الأولى، وكانت كاتبة الخطاب السيدة «ماك جريجور» تعيش فى جنوب إفريقيا، وكانت صديقة لزوجة المندوب السامى البريطانى لورد بوكستون.

هذا مثال يوضح كيف تغيرت الحالة العالمية خلال نصف قرن، وقد وجد الخطاب فى أرشيف المتحف التذكارى الخاص بالملك «خاما الثالث» الذى افتتح عام

١٩٨٦م، وأنشأه حفيد الملك ليبستوى خاما وأودعه مع أرشيفات الأسرة. والمتحف ملىء بأمثلة تثير الاندهاش عن تاريخ بتسوانا تغطى الفترة ١٨٧٥م-١٩٤٩م.

إن الملك «خاما» لم تتصل به السيدة«ماك جريجور» وحدها، فإن عدداً من طلاب الخير من الأوروبيين قد لجأوا إليه، وبين الملفات الموجودة يوجد طلب من إحدى مستشفيات لندن من أجل الجنود غير القادرين، وفيه ما يدل على أن الملك خاما وشعبه أهدوا إلى ما يسمى «سوق الحرب فى جنوب إفريقيا» مجموعة ضخمة من المصنوعات الجلدية والحرفية التقليدية، وقد ذهبت الأرباح والدخل المتحصل من هذا البيع إلى الفقراء والمحتاجين فى أوروبا.

وخلال الحرب العالمية الثانية تلقت أوروبا العون بصورة أخرى من ملوك إفريقيا. وتذكر وثائق المتحف أن ملك بتسوانا «تشيكيدى» الذى خلف «خاما الثالث» ساعد الجيش البريطانى بتقديم عشرة آلاف من الرجال لينضموا إلى صفوفه. وهذه تعتبر تضحية كبيرة؛ لأن مجموع السكان فى ذلك الحين كان لا يزيد عن ٤٠٠ ألف مواطن.

ولكن لحسن حظ هؤلاء أن الجيش البريطانى لم يكن لديه ثقة فى الجنود الإفريقيين، واستخدم رجال بتسوانا فى الخطوط الخلفية ليقوموا بأعمال الخدم والطبخ والغسيل، وهذا يفسر أن ٢١٦ فقط من بين العشرة آلاف هم من ماتوا فى الحرب.

ولم تتوقف مساعدة بتسوانا للمملكة المتحدة عند هذا الحد، فخلال الحرب العالمية الثانية جمع من شعب بتسوانا مبالغ كبيرة كضريبة حرب، أهداها ملوك بتسوانا كضريبة تطوعية إلى الجيش البريطانى.

فهل كان هناك ملوك أفريقيون آخرون أجزلوا العطاء لأوروبا الجائعة، كما فعل ملوك بتسوانا، وساعدوا فى التخفيف من معاناة الأوروبيين فى الحرب العالمية الثانية؟ لا شك أن ملوك بتسوانا لم يكونوا متفردين فى عطائهم، فغيرهم كثيرون ممن منحوا ووهبوا بلا حدود. وعندما يكتب تاريخ إفريقيا الحقيقى سيكشف المثير مما قدمته إفريقيا لأوروبا عبر الحقبة الاستعمارية.

والآن انقلب الوضع وأصبح أطفال إفريقيا هم الجوعى يطلبون العون من أجل البقاء على الحياة.